حركة المختار الثقفى
وملامح الحراك الفكرى والاجتماعى للشيعة والموالى

إعداد الدكتور

صلاح العاوور

مدير منطقة خان يونس التعليمية

بجامعة القدس المفتوحة

حركة المختار الثقفى
وملامح الحراك الفكرى والاجتماعى للشيعة والموالى

ملخص البحث

تعتبر ثورة المختار بن أبى عبيد الثقفى فى الكوفة (٦٤هـ - ٦٧هـ / ٦٨٤م - ٦٨٦م) من أكثر أحداث القرن الأول الهجرى أهمية ، فقد ساهمت بدرجة كبيرة فى تطور الشيعة كفرقة دينية وسياسية ، كما أن لها تأثيرًا مهمًّا فى التاريخ الاجتماعى والسياسى للفترة الأموية خاصة ، والتاريخ الإسلامى عامة .

كانت ثورة المختار عربية فى كيانها ضمت الموالى إليها وارتبطت بواقع الكوفة القبلى ، وقامت باسم العلويين ودعت لمحمد بن الحنفية ، وجاءت بعد فشل حركة التوابين ، وتمكنت من قتل كل من قتل وساهم فى قتل الحسين بن على والانتقام منهم ، وانتهت هذه الثورة على يد ابن الزبير .

لم يكن أهل العراق على وفاق مع بنى أمية ، وذلك لسببين : إقدام الأمويين على قتل الحسين بن على ، ونزوع غالبية أهل العراق إلى عداء الأمويين ، كونهم من المضرية الذين هاجروا إلى العراق من الحجاز ، فى حين أن أنصار الأمويين من اليمنية فى العراق كانوا أقلية . فبعد موت يزيد أخرج أهل البصرة ابن زياد ، واضطروه للرحيل إلى الشام على الرغم من تمسكه بالحكم فيها [1]، كما حصب أهل الكوفة أنصار الأمويين.

---

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج٣، ص ٣٢٠.

انتخب أهل الكوفة عامر بن مسعود واليًا عليهم ، وكتبوا باختيارهم إلى ابن الزبير فأقرهم على ذلك [١] وبهذا خرجت الكوفة والعراق من يد الأمويين ، وقد استمرت ولاية عامر على الكوفة مدة ثلاثة أشهر ، ثم ما لبث ابن الزبير أن وجه إليها واليًا جديدًا من قبله ، هو عبد الله بن يزيد الأنصارى [٢] .

إن تأييد العراقيين للحركة الزبيرية كان تعبيرًا عن سخطهم على البيت الأموى ، وليس إقرارًا بالولاء القاطع لابن الزبير . لذا ، كانت الشخصية العراقية الصرفة تحاول تحقيق وجودها بعيدًا عن الأمويين والزبيريين معًا ، ويبدو أنها قد وجدت فرصتها فى حركة التوابين . فقد شكلت فاجعة مقتل الحسين نقطة البدء فى نشأة هذه الحركة ، إذ رأى شيعة الكوفة بعد أن خذلوا الحسين ، أنه لن يغسل عنهم عار فعلتهم إلا الثأر والانتقام من قتلته أو الموت دون ذلك [٣]. فتجمع بعضهم عند قبر الحسين طالبين التوبة والغفران من الله تعالى ، وتسموا بـ (التوابين) ، نسبة إلى قوله تعالى : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [٤] ، وقد تزعم حركة التوابين سليمان بن صرد الخزاعى ، وهو أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

شكل سليمان بن صرد الخزاعى منافسًا كبيرًا للمختار الثقفى ، فقد كان له السبق فى الدعوة إلى المطالبة بدم الحسين ، نظرًا لكبر سنه وتاريخه الحافل ، وبذلك ، فقد استعصى على المختار القيام بجمع الشيعة حوله ، إلا أنه لم يُسلّم بالأمر الواقع ، بل دأب فى العمل وفقًا لخططه الخاصة . إذ بدأ يفرق الشيعة عن سليمان بن صرد من خلال تأكيده لهم بأنه أُرسل إليهم من قِبل ابن الحنفية ، وأن سليمان رجل كبير السن، وليس له خبرة بالحرب ، وأنه يريد أن يخرجهم ، فيقتل نفسه ويقتلهم [٥] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٥ ، ص ٥٢٤ .
(٢) المصدر نفسه : ج٥ ، ص ٥٢٩ .
(٣) مروج الذهب : المسعودى ، ج ٣ ، ص ١٠٠ .
(٤) سورة البقرة : آية ٥٤ .
(٥) طبقات ابن سعد : ج٥ ، ص ٦٨ — ٦٩ .

إن الجهود التى بذلها المختار فى هذا الاتجاه قد أحرزت نتائج ملموسة ، فقد انسحب من معسكر سليمان بن صرد عدد كبير ممن سبق وعقدوا له البيعة ؛ إذ تشير الروايات بأنه قد تجمع فى معسكره قبل خروجه لقتال عبد الله بن زياد أربعة آلاف فقط من مجموع ستة عشر ألفًا كانوا قد بايعوه [١] . ومع أن كلاً من المختار الثقفى وسليمان بن صرد كانا يدعوان للمطالبة بدم الحسين بن على (رضى الله عنه) ، إلا أنهما كانا يعملان فى اتجاهين مختلفين . فبسبب العلاقات القبلية بين أتباع سليمان ابن صرد وبين أشراف الكوفة ، فقد رفض سليمان احتلال الكوفة ، والقضاء على أولئك الذين شاركوا فى مقتل الحسين بن على [٢] ، وادعى أن ابن زياد وأهل الشام هم المسئولون عن مقتله . أما المختار الثقفى فقد كان يستعد للسيطرة على الكوفة ، الأمر الذى ساعده على كسب ولاء عدد من أتباع سليمان بن صرد .

وجد عبد الله بن الزبير فى حركة التوابين فرصة عظيمة لتقوية نفوذه بشكل عام ، لأن إخماد هذه الحركة سيشغل الأمويين عنه ، كما أن جهودهم فى هذا الاتجاه ستستنفد قدرًا كبيرًا من طاقتهم القتالية التى قد يوجهونها ضده . لذا ، وبتوجيه منه ، قام عامله على الكوفة عبد الله بن يزيد — حين علم بتحركات التوابين — [٣] فى الناس خطيبًا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أما بعد ، فقد بلغنى أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذى دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ فقيل لى : زعموا أنهم يطالبون بدم الحسين بن على ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله ذُللت على أماكنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل : ابدأهم قبل أن يبدءوك ، فأبيت ذلك ، فقلت : إن قاتلونى قاتلتهم ، وإن تركونى لم أطلبهم ، وعلام يقاتلوننى ! فوالله ما أنا قتلت حسينًا ، ولا أنا ممن قاتله ، ولقد أصبت بمقتله رحمة الله عليه ! فإن هؤلاء القوم آمنون، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ليسيروا إلى من قاتل الحسين ، فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير ، هذا ابن زياد قاتل الحسين ، وقاتل خياركم وأماثلكم ، قد توجه

(١) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢١٨ .
(٢) المصدر نفسه : ج٥، ص ٢٠٩ .
(٣) خلافة بنى أمية : نبيه عاقل ، ص ١٤٠ .

إليكم ، عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج ، فقتاله والاستعداد لـه ، أولى وأشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضًا ، ويسفك بعضكم دماء بعض، فيلقاكم ذلك العدو غدًا وقد رققتم ، وتلك والله أمنية عدوكم ، وأنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، من ولى عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لا يقلعان عن قتل أهل العفاف والدين ، هو الذى قتلكم ، ومن قبله أتيتم ، والذى قتل من تثأرون بدمه، قد جاءكم فاستقبلوه بحدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ، ولا تجعلوها بأنفسكم ، إنى لم آلكم نصحًا ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا ! "[١] .

وهكذا ، نجح عبد الله بن يزيد بخطابه هذا فى تجنب لقاء ابن زياد الذى كان يقود حملة أنفذها مروان بن الحكم لاستعادة العراق ، ووضع هذا العبء على كاهل التوابين دون أن يتكلف هو عناء ذلك . هذا فضلاً عن أنه استطاع بذلك أن يخلص السلطة الزبيرية فى العراق من فئة خارجة ، لا تقر لابن الزبير بالخلافة ، وتراها من حق آل البيت .

وقد بلغت عبيد الله بن زياد أخبار وفاة مروان بن الحكم وهو فى طريقه إلى العراق ، فثبته خليفته عبد الملك بن مروان فى المهمة التى سبق وأن أوكلت إليه ، وأمره أن يسير إلى لقاء أعدائه فى العراق . وبعد أن خرج سليمان بن صرد وأتباعه لقتال ابن زياد وأهل الشام ، أثارت نشاطات المختار شكوك أشراف أهل الكوفة الذين اشترك كثير منهم فى مقتل الحسين . فقد حذروا الوالى عبد الله بن يزيد من المختار وحركته ، قائلين : " إن المختار أشد عليكم من سليمان بن صرد ، إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوكم ويذللهم لكم ، وقد خرج عن بلادكم ، وأن المختار إنما يريد أن يثبت عليكم فى مصركم " [٢] . ونتيجة لذلك قُبض على المختار ، وأودع السجن لينظر فى أمره بعد رجوع أتباع سليمان بن صرد من معركة (عين الوردة) التى قُتل فيها سليمان ومعظم أتباعه .

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٥ ، ص٥٦١ — ٥٦٢ .

(٢) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢١٨ .

وفى أثناء سجنه كانت هناك جمعية من خمسة أعضاء (*) – كلهم من عرب اليمن يعملون لصالح المختار ويأخذون البيعة له . كما أن المختار نفسه كان يعمل من سجنه بنشاط ، مدعيًا بأسلوب نثرى مسجوع ، أن هدفه هو قتل كل جبار من أجل إقامة عمود الدين ، ولمّ شعث المسلمين بمساعدة أتباعه الذين سماهم: (الأنصار)[١] .

التقى التوابون بقيادة سليمان بن صرد بجيش الأمويين بقيادة الحصين بن نمير فى (عين الوردة) فى سنة ٦٥هـ من أرض الجزيرة [٢] ، فاستبسل التوابون فى القتال ، وكان شعارهم : " الجنة الجنة " ، فقُتل منهم عدد كبير من بينهم سليمان بن صرد ، وهرب الباقون [٣] . وقد سر عبد الملك الذى تولى الخلافة فى الشام بعد مروان بهذا النصر ، فأبقى ابن زياد فى منصبه ، وولاه الكوفة على أمل أن يفتح له العراق[٤] .

المختار رجل من ثقيف ، وهو ابن أبى عبيد الثقفى شهيد معركة الجسر ، كان عمره حين قتل أبوه ثلاث عشرة سنة [٥] .

وقد ظهر المختار بن أبى عبيد الثقفى فى ميدان السياسة سنة ٦٦هـ . وكان ذا أطماع كبيرة ، كما أنه تقلب كثيرًا فى الأحزاب [٦] .

لقد أورد المؤرخون روايات متباينة ترسم للمختار صورة الزعيم الميكافيلى المتطفل الذى يزعم أنه يوالى بنى هاشم ، مع أنه كان يعمل لحسابه الخاص [٧] ، فذكروا أنه فى شبابه قد حرّض عمه: عامل المدائن على خداع الحسن وتسليمه إلى معاوية[٨] .

(*) وهم : السائب بن مالك الأشعرى ويزيد بن أنس الأسدى وأحمد بن شميط الأحمس ورفاعة بن شداد الفتيانى وعبد الله بن شداد الجمحى .

(١) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٦٩ .

(٢) معجم البلدان : ياقوت الحموى ، ج٦ ، ص ٢٥٨ .

(٣) الكامل : ابن الأثير ، ج٣، ص ٣٤٣ .

(٤) العقد الفريد : ابن عبد ربه ، ج٢ ، ص ٣١٩ .

(٥) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢١٤ وما بعدها .

(٦) تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم حسن ، ج١ ، ٣٢٨ .

(٧) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٢٩٢ .

(٨) الكامل : ابن الأثير ، ج٣، ص ٢٠٣ .

وحين بعث الحسين بن على ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ، بايع المختار مسلمًا سرًا ، وأنزله فى داره ، وكان جزاؤه على ذلك أن زج به عبيد الله بن زياد فى السجن ، وبقى فى سجنه حتى مقتل الحسين . وقد سعى له الخليفة يزيد بن معاوية من أجل إطلاق سراحه ، فكتب الخليفة إلى عبيد الله بن زياد بتخلية سبيل المختار ، على أن يمهله للبقاء فى الكوفة مدة ثلاثة أيام ، وبالفعل فقد أُطلق سراحه وغادر الكوفة قاصدًا الحجاز، وفى نفسه حقد كبير على عبيد الله بن زياد [١] . وبعد موت الخليفة يزيد كتب المختار إلى على بن الحسين ليبايع له ، فأبى ابن الحسين وتبرأ منه فى مسجد المدينة [٢] .

وأخيرًا، اتصل المختار بابن الزبير وحاول أن يبايعه ويدخل فى خدمته ، وأن يوزر له، فلم يجد تجاوبًا لدى ابن الزبير ، لأن الأخير كان قليل الثقة بالمختار ، فأعاد الكرة بعد سنة ، فتم له ما أراد ، وغدا من رجاله [٣] ، ولكنه لم يحقق مآربه بأن يكون وزيره ومحل ثقته .

ومكث المختار مع ابن الزبير حتى كان حصار الحصين بن نمير لمكة ، فقاتل إلى جانب ابن الزبير وأبلى بلاءً حسنًا ، وظل معه حتى انصرف الحصين وأهل الشام بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية .

ولما لم يجد المختار من ابن الزبير ما كان يصبو إليه ، رجع إلى الكوفة وانضم إلى الشيعة ، وهناك استغل ثورة التوابين لتحقيق أهدافه الرامية للنيل من ابن الزبير والأمويين ، واستتر لأجل ذلك وراء ابن الحنفية ، وادعى أنه أميره ووزيره ، وبذلك ، يكون قد وقف فى وجه كل من ابن الزبير وعبد الملك بن مروان ، وفى المقابل ، اجتمعت الشيعة تحت لوائه ، وساعده على ذلك امتناع ابن الحنفية عن الدخول فى الدعوة التى تصدرها ابن الزبير فى مكة [٤] .

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٥ ، ص ٥٧٣ .
(٢) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢٧٢ .
(٣) المصدر نفسه : ج٥ ، ص ٢١٧ .
(٤) تاريخ الإسلام : حسن إبراهيم ، ص ٣٢٨ .

ومن المرجح أن المختار بعد مقتل الحسين قد وضع نصب عينيه الثأر ممن سفكوا دم الحسين ، فكان شعار دعوته : " يا لثأرات الحسين " . ويبدو أن المختار قد تمسك بهذا الهدف ، حيث خصص أبو مخنف لذلك كتابًا سماه : (رسالة أخذ الثأر، وانتصار المختار على الطغاة الفجار) . ويظهر أن ابن الحنفية – بعد هزيمة التوابين – قد اصطنعه لنفسه ، ليأخذ له بثأر أخيه ، ليقينه بمدى حماسه لذلك ، فأمره بالمطالبة بدم الحسين ، والأخذ بثأره والانتقام من قتلته ، وملاحقتهم حيث كانوا ، وسماه (كيسان) ؛ لكياسته وإخلاصه لمذهبه ، كما أنه أمر شيعة الكوفة بنصرته . وقد كان المختار يشعر بثقل عبء تلك المهمة ، فيقول : " أنا ملاح السفينة " . يضاف إلى ذلك أنه كان يصل آل البيت بالمال ، وأن أغلبهم كانوا يثنون عليه [١] .

كتب المختار – وهو في السجن – إلى من بقي من أتباع سليمان بن صرد وبعد عودتهم إلى الكوفة ، كتابًا ثمن فيه جهودهم ، ووعدهم فيه بالثواب قائلاً : " أما بعد ، فمرحبًا بالعصب الذين أعظم الله لهم الأجر حين انصرفوا ، ورضي انصرافهم حين قفلوا . أما ورب البنية التي بنى ما خطا خاط منكم خطوة ، ولا رتا رتوة ، إلا كان ثواب الله له أعظم من ملك الدنيا " . إن سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفاه الله فجعل روحه مع أرواح الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذي به تُنصرون ، إني أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبارين ، والمنتقم من أعداء الدين، والمقيد من الأوتار ، فأعدوا واستعدوا ، وأبشروا واستبشروا، أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفاع عن الضعفاء ، وجهاد المحلّين والسلام " [٢] .

وقد أطلق سراح المختار بوساطة سعى فيها صهره عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وبكفالة عشرة من وجهاء الكوفة وأشرافها ، وبعد أن أقسم بالله قال : " ... لا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان ، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ، ومماليكه كلهم ذكرهم وأنثاهم أحرارًا "[٣] .

---

(١) طبقات ابن سعد : ج٥ ، ص ٧١ – ٧٥ .

(٢) تاريخ الطبري : ج٥ ، ص ٦٠٦ .

(٣) أنساب الأشراف : البلاذري ، ج٥ ، ص ٢١٩ .

بدأ المختار يستعد للسيطرة على الكوفة فى محرم ٦٦هـ / آب ٦٨٥م ، فأرسل إلى أتباعه بهدف جمعهم فى الدور حوله ، وبينما هو منشغل فى الاستعداد للثورة ، انتاب جماعة من الشيعة من بين أتباعه شك فيما ادعاه بأن ابن الحنفية قد أرسل إليهم، ولذلك، قرروا المسير إلى مكة لسؤال ابن الحنفية عن حقيقة ما ادعاه المختار . وقد كان جواب ابن الحنفية لهم : " ... فوالله، إن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ... " [١] . ويبدو أن الوفد قد اعتبر تصريح ابن الحنفية هذا بمثابة موافقة منه لوقوفهم إلى جانب المختار وتأييده ، على أساس أنه لو كرههم فى هذا الأمر ، لمنعهم من الانضمام إلى المختار وتأييده .

وقد كانت هذه المشورة قد حدثت دون علم المختار . ولما علم بها ، انتابه قلق شديد خشية أن يكون جواب ابن الحنفية قد جاء بما يتعارض مع خططه ، لذلك، حاول أن يعلن ثورته قبل رجوع الوفد ، فلم يستطع ذلك .

وبعد شهر عاد الوفد وأخبر المختار بأن ابن الحنفية أمرهم بتأييده ونصرته . عند ذلك تنفس المختار الصعداء ، فجمع الشيعة وأذاع لهم تأييد ابن الحنفية له . وقد أكد ذلك رئيس الوفد وأتباعه الذين خطبوا بهذه المناسبة .

مما لا شك فيه بأن جواب التأييد الذى جاء به الوفد قد ساهم فى رفع مكانة المختار ، وزاد من عدد أتباعه . لأنه شجع أولئك الذين شكوا فى ادعاءات المختار حول حقيقة عمله لصالح ابن الحنفية على الانضمام إليه ، أو على الأقل تعاطفهم معه ومشاركتهم له فى مشاعرهم [٢] .

وحتى يتمكن المختار من مواجهة الوالى وأشراف الكوفة ، كان ينبغى عليه أن يحصل على تأييد ومؤازرة إبراهيم بن مالك بن الأشتر . وكان إبراهيم بن مالك بن الحارث الأشتر - أحد أشراف قبيلة النخع من مذحج - ، من مؤيدى على بن أبى طالب . وكان إبراهيم كوالده ذا نفوذ كبير فى قبيلته . وقد رافق والده فى موقعة (صفين) إلى جانب الإمام على ، وبقى مخلصًا له ولأفراد بيته . ويمكن تفسير عدم

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ج٢ ، ص ٣٠٨ .

(٢) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٧٢ .

انضمام ابن الأشتر إلى سليمان بن صرد ، أو إلى المختار الثقفى ؛ انطلاقًا من أن ابن الأشتر لم يكن يؤمن بالحركة الشيعية كما كانت آنذاك ، وربما لأنه لم يكن يثق بأى من هذين الزعيمين ، أو أنه اعتبر نفسه فى موقع يوازى مكانتهما ، إن لم يكن يفوقهما كفاءة .

ومما يؤكد وجهة النظر هذه ، الجواب الذى أعطاه ابن الأشتر لأتباع المختار عندما سألوه الانضمام إلى حركتهم . فقد أرسل المختار إليه وجهاء الشيعة والمتنفذين من أتباعه ، ومن بينهم : عامر الشعبى وأبوه ، وعندما سألوه الانضمام إليهم أبدى موافقته على ذلك ، ولكنه اشترط أن تناط به قيادة الحركة . وردوا عليه بعدم إمكانية ذلك ، طالما أن المختار كان قد أرسل إليهم من قبل المهدى محمد بن الحنفية . ورغم شرط ابن الأشتر هذا ، حاول المختار أن يكسبه إلى جانبه ، فسعى إلى التوفيق بين مراده وبين مطلب ابن الأشتر ، حيث ذهب بعد ثلاثة أيام بصحبة عدد من أتباعه إلى ابن الأشتر حاملين له رسالة تخصه، ادعوا فيها أن ابن الحنفية كتبها له . ونص هذه الرسالة هو: " بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد المهدى إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . أما بعد، فإنى قد بعثت إليكم بوزيرى وأمينى ونجيبى الذى ارتضيته لنفسى ، وقد أمرته بقتال عدوى والطلب بدماء أهل بيتى ، فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرتنى ، وأجبت دعوتى ، وساعدت وزيرى ، كان لك عندى بذلك فضيلة ، ولك بذلك أعنة الخيل ، وكل جيش غاز، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة أقصى بلاد أهل الشام، وعلى الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فعلت ذلك نلت به عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكًا لا تستقيله أبدًا ، والسلام عليك " [1] .

وقد شهد جميع الذين وفدوا مع المختار أمام ابن الأشتر بأنهم شاهدوا ابن الحنفية وهو يكتب الرسالة له ، فقبلت الرسالة دون اعتراض .

---

(١) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢٢٢ .

ولكن ابن الأشتر أشار إلى أن ابن الحنفية سبق وأن كتب لـــه ، كما أنه كتب إلى ابن الحنفية قبل اليوم ، فما كان يكتب إلاّ باسمه واسم أبيه . بناءً على ذلك ، طلب من المخـــتار توضـــيحات أكثر حول هذا الموضوع ، فأجابه : إن ذلك زمان وهذا زمان. ومـــع ذلك فقد طلب ابن الأشتر من عامر الشعبى بأن يشهد على ما ادعاه الشهود : وهو أن ابن الحنفية كان قد كتب الرسالة . ويبدو أن التوضيحات التى أوردها المختار بشـــأن ذلك ، وشهادة الشهود ، قد أقنعت ابن الأشتر . وقد شكل هذا الحدث بداية لتحالف ابن الأشتر مع المختار وتعاونه معه ، حيث بدأ يحضر الاجتماعات فى بيته .

لقـــد اجتمع رأى المختار وأصحابه على إعلان الثورة ، وحددوا يوم الخميس ١٤ ربيع الأول سنة ٦٦هـــ موعدًا لانطلاقها ، ولكن يبدو بأن استعدادات المختار للثورة لم تغـــب عـــن عـــيون صاحب شرطة الوالى ، إلا أنه لم يكن يعرف الموعد المحدد لها بالضبط .

وفى مســـاء يوم الثلاثاء ١٢ ربيع الأول سنة ٦٦هـــ ، ذهب ابن الأشتر ومجموعة من أتباعه تقدر بمائة فرد ، وأخفوا أسلحتهم فى بيت المختار كعادتهم . ولم يحاول ابن الأشـــتر تحاشـــى قوات الوالى ، ربما كتحدٍ له . وفى طريقه إلى هناك التقى بإياس بن مضارب وشرطته الذين حاولوا منعه من المرور ، وطالبوه بالاستسلام والسير معهم إلى الـــوالى . فكـــان جواب ابن الأشتر لهم ، بأن قتل صاحب الشرطة ، فتفرق أتباعه ، واستمر فى المسير إلى بيت المختار . وهناك أخبر المختار بما حدث ، وقدم له رأس إياس صـــاحب الشرطة ، فسر المختار بذلك ، ولكن ما حدث ، دفعه إلى إعلان الثورة قبل يوم من الموعد المحدد لها . وقد أبلغ المختار أتباعه ببداية انطلاق الثورة وأمرهم بإشعال الـــنيران فى هـــرادى القصـــب ، والنداء بشعاراتهم " يا منصور أمت " و " يا لثأرات الحسين " [١] .

إن اتخـــاذ المختـــار شـــعار : " يا منصور أمت " لم يكن ذا أهمية . فالمنصور هو الشـــخص الذى ينتظره اليمانيون ليعيد لهم ســـلطانهم وسيادتهم ، وهذا الشعار يعنى : " يا منصور اليمن، أمت أعداء أهل اليمن " ، ولما كان عرب اليمن هم العنصر الغالب

---

(١) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥، ص ٢٢٢ .

بـــين أتـــباع المختار ، فإن تبنى هذا الشعار ، كان بمثابة استقطاب لتطلعاتهم السياسية والدينية .

كـــان المختار وأتباعه يعسكرون قرب (دير هند) فى منطقة السبخة ، وكان فى جيشه حوالى خمسمائة من الموالى ، على رأسهم قائد منهم .

وقد أرسل الوالى عبد الله بن مطيع ثلاثة آلاف رجل ، على رأسهم شبث بن ربعى التميمى إلى (السبخة) ، وراشد بن إياس بن مضارب مع أربعة آلاف من الشرط إلى (جبانة مراد) فى محاولة منه لمواجهتهم . وفى المقابل أرسل المختار تسعمائة رجل على رأســـهم ابـــن الأشتر ، لمواجهة راشد بن إياس ومن معه ، وأرسل نعيم بن هبيرة مع ثلاثمائـــة فـــارس وستمائة راجل لمواجهة شبث بن ربعى التميمى ، كما جعل يزيد بن أنس مع تسعمائة رجل فى مقدمته . وعندما التقى الطرفان بدأت قوات شبث بن ربعى تتراجع أمام قوات المختار ، مما دفع شبث إلى المناداة فى جنده لإثارة حفيظتهم ، فكان ينادى : " يا حماة السوء ، بئس خرسان الحقائق أنتم ، أمن عبيدكم تهربون " . إشارة إلى الموالى فى جيش المختار ، فتابت إليه جماعة منهم . وكانوا يقتلون كل مولى يقع فى أســـرهم ، فى المقـــابل هيئوا الفرصة أمام الأسرى العرب للفرار، ونتيجة لذلك أصبح جيش المختار فى موقف صعب .

وفى هـــذا الوقـــت، قام الوالى بإرسال تعزيزات جديدة لأتباعه قوامها ألفا رجل ، عـــلى رأســـهم يزيد بن الحارث بن رويم . وقد كان المختار فى هذا القتال على رأس الرجالة من أتباعه ، بينما كان يزيد بن أنس على الخيالة .

وقد تمكن ابن الأشتر فى هذا الوقت من دحر راشد بن إياس وقتله ، قبل عزمه على الـــتوجه إلى نجـــدة المختار . وقد كان لهذا النصر أثر كبير فى رفع معنويات أصحاب المختار ، وتثبيط عزائم من كانوا تحت إمرة شبث بن ربعى . بعد ذلك أرسل الوالى ، حســـان بن فائد بن بكر العبسى مع ألفى رجل ليحول بين ابن الأشتر وبين المختار ، ولكن حسان هُزم واستمر ابن الأشتر فى تقدمه . وعندما ظهر ابن الأشتر بدأت قوات شـــبث بالـــتراجع أمامه حتى وصلت إلى الوالى ابن المطيع الذى أصابه اليأس بعد قتل راشـــد بن إياس وهزيمة جنده . ولكن القوات المهزومة عادت فتجمعت مرة أخرى فى

الكناسة ، ومع ذلك تمكن ابن الأشتر من دحرها ، فهرب الأشراف ومعهم الوالى إلى القصر ، وظلوا محاصرين فيه مدة ثلاثة أيام . وفى مساء اليوم الثالث ترك ابن المطيع القصر ، وذهب إلى بيت أبى موسى الأشعرى وأخفى نفسه هناك . أما الأشراف فقد طلبوا الأمان من ابن الأشتر ، وعندما أجيبوا إلى ذلك ، استسلموا للمختار .

وقد أمضى المختار تلك الليلة فى القصر ، وفى الصباح صعد المنبر فى المسجد وخطب فى الناس ، وعقب انتهاء خطبته بايعه الناس لا سيما الأشراف وغيرهم . وكانت البيعة على " كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفاع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والوفاء ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم "[١] .

وقد سعى المختار منذ استيلائه على الكوفة إلى التوفيق بين جميع الفئات ، كما أظهر العدالة ، ونشر الأمن .

وقد وجد المختار فى بيت مال الكوفة تسعة ملايين درهم ، فأعطى كل واحد اشترك فى مهمة السيطرة على القصر خمسمائة درهم ، وكانوا ثلاثة آلاف وثمانمائة رجل . وأعطى كل فرد انضم إليه بعد ذلك مائتى درهم ، وقدروا بستة آلاف فرد .

وفى محاولته لإظهار صفة التسامح منع المختار أتباعه من أن يقتلوا أحدًا [٢] .

كما عمل المختار كذلك من أجل حماية الضعفاء ، وأكد فى بيعته تمشيًا مع مبادئ الإسلام على مبدأ المساواة بين جميع المسلمين بغض النظر عن قوميتهم أو جنسهم .

لقد أباح المختار للموالى مشاركة العرب بالفيء وركوب الخيل . كما عين كيسان أبا عمرة مولى عرينة على حرسه . وربما جاء تعيين كيسان فى هذا المنصب جراء ثقة المختار به دون غيره ، أو لأن كيسان كان أكثر نفوذًا من بين الموالى المؤيدين للمختار . كما أعلن المختار أيضًا أن كل عبد ينضم إليه سيكون حرًا . فليس غريبًا أن يزداد عدد الموالى والعبيد بين أتباعه إلى درجة كبيرة .

---

(١) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر نفسه : ج٥ ، ص ٢٢٨ .

وفى هـــذه الأثناء تقدم ابن زياد نحو الموصل فى طريقه إلى الكوفة . عند ذلك كتب عـــبد الـــرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانى والى الموصل إلى المختار بن أبى عبيد الثقفى يخـــبره أنـــه بسبب قلة رجاله ترك الموصل وذهب إلى تكريت منتظرًا أوامره ، فأرسل المختار بناءً على ذلك ثلاثة آلاف فارس كلهم من العرب بقيادة يزيد بن أنس الأسدى . فالـــتقوا مع جزء من الجيش الشامى فى ١٩ ذى الحجة سنة ٦٦هـــ /١٧ تموز سنة ٦٨٦م عـــند الفجر فى مكان يبعد خمسة فراسخ عن الموصل . وقد انتهت هذه المعركة بانتصار يزيد بن أنس بالرغم من مرضه فى ذلك الوقت ، ومن أن جيشه كان يساوى نصف عدد جيش أهل الشام ، ولكن فى أثناء القتال توفى يزيد الأسدى بعد أن كان قد أمـــر بقـــتل جميع الأسرى من أهل الشام . وقد سببت وفاته ضعفًا ملموسًا فى عزائم أتـــباعه ، إذ رأوا أنـــه مـــن الحكمة الانسحاب نظرًا لقلة عددهم وعدم قدرتهم على مواصـــلة الصمود فى وجه جيش أهل الشام الذى يقدر عدده بثمانين ألفًا، والذى كان يواصل الزحف نحوهم .

إن انسحاب جيش المختار كان له ردة فعل عنيفة فى الكوفة . إذ راجت إشاعات مفادهـــا : أن عبيد الله بن زياد دحر جيش المختار ، وقتل قائده يزيد بن أنس ، وهو يتقدم الآن بجيشه الكبير نحو الكوفة .

وعـــندما سمـــع المختار ذلك أمر قائده ابن الأشتر بالتوجه لملاقاة عبيد الله بن زياد بجيش قوامه سبعة آلاف رجل ، وأمره أن يضم إليه جيش يزيد بن أنس .

إن تقـــدم جيش أهل الشام تجاه منطقة نفوذ المختار من جهة ، وخروج جزء كبير مـــن جيشـــه بعيدًا عن الكوفة من جهة أخرى ، جعل موقفه حرجًا ، فقد شجع هذا الظـــرف أشـــراف أهـــل الكوفة على إبداء مظاهر التحدى لـــه ، بل والاستعداد للـــتخلص مـــن حكمه . فقد أدان أشراف الكوفة المختار لإقدامه على تنصيب نفسه حاكمًـــا عليهم دون رضاهم ، وقيامه أيضًا على رفع مكانة مواليهم ، ومنحهم امتياز ركـــوب الخيل والاشتراك فى الفيء ، واستلام العطاء . وكان المتكلم باسمهم شبث بن ربعى التميمى، حيث نقل شكواهم هذه إلى المختار [١] .

(١) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٦ .

استعد الأشراف للثورة ، وذهبوا إلى عبد الرحمن بن مخنف ، فدعوه إلى الخروج معهم ، فنصحهم بعدم الخروج على المختار ، قائلاً : " إنى أخاف أن تتفرقوا وتختلفوا وتتخاذلوا ، ومع الرجل والله شجعاؤكم وفرسانكم من أنفسكم ... ثم معه عبيدكم وموالـيكم وكلمة هؤلاء واحدة ، ومواليكم أشد حنقًا عليكم من عدوكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب وعداوة العجم ، وإن انتظرتموه قليلاً كفيتموه بقدوم أهل الشام أو بمجيء أهل البصرة ، فتكونوا قد كفيتموه بغيركم و لم تجعلوا بأسكم بينكم " [1] ، ولكن يبدو أن نصيحته هذه قد رُفضت ، ولكنه انضم فيما بعد إليهم فى الثورة ضد المختار .

وبعد رحيل ابن الأشتر لقتال جيش أهل الشام الذى كان يقوده عبيد الله بن زياد، قامت ثورة الأشراف ، واحتل الثوار الأماكن المهمة فى الكوفة .

وقد نجح المختار فى استدعاء ابن الأشتر مع قواته إلى الكوفة . وبينما كان فى انتظار وصوله ، فإنه لم يدخر جهدًا فى سبيل مصالحة الأشراف ومهادنتهم ، فأرسل إليهم بوعوده واستعداده للاستجابة إلى جميع رغباتهم . وعندما طالبوه باعتزالهم ، بسبب بطلان ما ادعاه بشأن مسألة مراسلة ابن الحنفية لسؤاله عن ذلك . ويبدو أن المختار قد لجأ إلى هذا الإجراء لتحقيق هدفين مهمين : الأول أن يحدث خلافًا بينهم ، والثانى أن يكسب الوقت لحين وصول ابن الأشتر . ومع ذلك لم يقبل الأشراف بما اقترحه عليهم المختار ، وقرروا انتهاز هذه الفرصة للتخلص من المختار ، كذلك لجأ المختار إلى اعتماد استراتيجية جديدة تهدف إلى زيادة العداوة بين الموالى – وهم أربعون ألفًا فى هذا الوقت – وبين أسيادهم من الأشراف ، وذلك من خلال إقناعهم بأن قتالهم معه يصب فى مصلحة قضيتهم الخاصة التى هى قضيته ، وأن الأشراف لم يخرجوا عليه إلا لأنه قام بتقديمهم فى المناصب ، وسعى إلى تحسين أوضاعهم .

وبعد ثلاثة أيام من خروجه رجع ابن الأشتر إلى الكوفة ، وفى يوم الأحد الرابع والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٦هـ / الثانى والعشرين من تموز سنة ٦٨٦م، جمع الأشراف قواتهم فى ثلاثة مواقع : مضر فى الكناسة ، وأهل اليمن فى جبانة السبيع ،

---

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب : النويرى ، ج١٩، ورقة ١٨ .

وربيعة فى السبخة . ولعلمه بالعصبية القبلية ، طلب المختار إلى ابن الأشتر قتال مضر بالكناسة ، بينما ذهب هو نفسه لقتال أهل اليمن ، لاعتقاده أن ابن الأشتر ربما يتقاعس عن قتال قومه من أهل اليمن ، ولا يخلص له فى أداء هذه المهمة .

وقد تحققت توقعات عبد الرحمن بن مخنف ، إذ سرعان ما بدأت المنافسة والغيرة تستشرى بين الأشراف ، مما ساعد ذلك على تحقيق انتصار مؤثر للمختار .

نظم المختار أتباعه بعد الانتصار الذى حققه ، وعقد الرايات لقواده ، فأرسل جيشًا مع ابن الأشتر لقتال ابن زياد بالجزيرة ، الذى كان يستعد للزحف على العراق بعد هزيمة التوابين ، لولا انشغاله بفتنة القيسية فى الجزيرة ، حيث يبدو أنه استمالهم فى النهاية ، فتقابل جيش ابن الأشتر مع جيش ابن زياد عند نهر خازر ، قرب الموصل سنة ٦٨٦/٦٧م، ودارت بينهما معركة عنيفة انتهت بانتصار ابن الأشتر ، وإذ بالدائرة هذه المرة تدور على جيش الأمويين ، لا سيما بعد أن انضمت القيسية فى جيش ابن زياد إلى ابن الأشتر ، جراء حقد لم ينسوه تجاه الأمويين الذين أوقعوا بهم القتل فى موقعة راهط ، وقد تتبع ابن الأشتر أعداءه ، فغرق منهم أكثر ممن قتل ، وتمكن ابن الأشتر من قتل ابن زياد بنفسه ، فضربه ضربة قدته نصفين [١] ، كما وقع الحصين بن نمير فى الأسر ، فأقدم المختار على قتله بعد أن قرضه بالمقاريض [٢]، وحينما أرسل ابن الأشتر ببشارة النصر إلى المختار ، ولاه على الجزيرة ، فأقام بها ، ووجه عماله على مدنها [٣] .

لقد ساهمت جملة من العوامل فى الانتصار الذى حققه ابن الأشتر رغم قلة عدد جيشه بالمقارنة مع جيش عبيد الله بن زياد ، فإلى جانب شجاعة ابن الأشتر وكفاءته العسكرية ، فقد لعب الحماس الدينى للشيعة دوره فى هذه المعركة ، إذ التقى هؤلاء الشيعة وجهًا لوجه مع ابن زياد قاتل الحسين " رضى الله عنه " ، هذا الحماس الذى أذكته خطبة ابن الأشتر قبيل المعركة ، كما أن انضمام القيسية فى جيش عبيد الله بن زياد إلى جيش ابن الأشتر ساهم فى انتصار ابن الأشتر ، فقد ذكر أن عمير بن الحباب

---

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج٣ ، ص ٣٦٤ - ٣٨١ .

(٢) فى مقتل الحسين ، ورسالة أخذ الثأر وانتصار المختار : أبو مخنث ، ص ١٠٠ .

(٣) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٢٨٩ .

السلمى – الذى كان على ميسرة جيش ابن زياد ومعه القيسيون – قد زار ابن الأشتر، وأخبره بأنهم يكنون الكره تجاه آل مروان بسبب معركة مرج راهط ، ووعده بهزيمة ابن زياد عندما تبدأ المعركة [١] ، وبالفعل فقد تم ذلك .

وإبان ذلك أخذ المختار يتعقب بلا هوادة كل من خرج إلى قتال الحسين أو اشترك فى دمه ، فكان يحرقهم ، ويقطع أيديهم وأرجلهم ، ويطعنهم بالرماح ، ويتبعه الفعلة بالمعاول لهدم دورهم ، حتى بلغ من عذب منهم عشرون ألفًا ، وفوق ذلك تمكن من الإيقاع بالشخصين اللذين يعتبران مسئولين عن قتل الحسين ، وهما : شمر بن ذى الجوشن ، الذى ركب صدره الشريف وذبحه ، وكان شمر قد هرب من الكوفة بعد وثوب المختار بها ، ولكن المختار أرسل إليه من تمكن من قتله ، وعمر بن سعد ، الذى كان قد تولى قيادة الجيش الأموى إلى كربلاء، ثم اختفى بعد ذلك بالكوفة ، ولكن المختار ظفر به وأحضره بين يديه ، فقتله صبرًا ، بأن أمر به ، فجرده من أطماره ، ولوى شفتيه وأذنيه كما يلوى فى البهيمة ، وشد لحيته ، وقلع أضراسه ، وسبل عقد أصابعه ، وقرض لحمه ، وقطع لسانه ، وغور عينيه ، فمات ، وأخذ رأسه وبعث بها إلى بنى هاشم بالحجاز ، كذلك تمكن المختار من إخماد ثورة عرب الكوفة من غير الشيعة ، وعلى رأسهم أشرافهم من رؤساء القبائل ، تلك الثورة التى اشتعلت بحجة أن المختار باعد العرب وقرب الأعاجم ، وقد تم إخماد الثورة ، وهرب معظم الأشراف إلى البصرة، فإن الإنجازات التى حققها المختار نالت إعجاب بنى هاشم وثناءهم ، حتى قال ابن العباس عنه : " إنه أصاب بثأرنا "[٢] .

حاول المختار أن يتجنب العداء السافر مع عبد الله بن الزبير ، لذلك بدأ معه اتصالات دبلوماسية، فحاول أولاً أن يبرر له أسباب طرد عامله على الكوفة عبد الله ابن مطيع متهمًا إياه بأنه كان يعمل لصالح عبد الملك بن مروان ، كما كتب إليه يذكره بالشروط التى على أساسها بايعه قائلاً : " فقد عرفت مناصحتى إياك وجهدى على أهل عداوتك وما كنت أعطيتنى إذا فعلت ذلك من نفسك ، فلما وفيت وقضيت

---

(١) الخلافة الأموية : عبد الأمير دكسن ، ص ٩٩ .

(٢) طبقات ابن سعد : ج٥ ، ص ٧٣ .

الذى كان لك على خست بى و لم تف بما عاهدتنى عليه ورأيت منى ما قد رأيت فإن ترد مراجعتى أراجعك وإن ترد مناصحتى أنصح لك " (١) .

ولكن عبد الله بن الزبير أراد أن يختبر إخلاص المختار له ، فأرسل واليًا جديدًا على الكوفة هو عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى ، وعندما وصلت أخبار ما قام به ابن الزبير إلى المختار بواسطة أحد عيونه فى مكة ، أرسل زائدة بن قدامة مع خمسمائة من الفرسان بقيادة مسافر بن سعيد الناعطى ، وسبعين ألف درهم - وهى ضعف ما أنفقه الوالى الجديد فى جهازه - وطلب إلى قدامة أن يأمر الوالى الجديد بأخذ المال والرجوع من حيث أتى ، وفى حالة رفض الوالى ذلك ، فعلى ابن قدامة أن يريه الخيالة ، ويخبره أن هناك مائة كتيبة أخرى وراءها ، وقد رفض عمر المخزومى فى البداية أن يأخذ المال ، وحاول أن ينفذ أوامر ابن الزبير ، ولكنه عندما رأى الخيالة ، رضخ وأخذ المال ، وذهب إلى البصرة (٢) .

ويبدو أن الظروف السياسية قد أجبرت المختار مرة أخرى على التصرف بصورة سرية ، فأخذ يسعى إلى صداقة ابن الزبير ، وفى نفس الوقت كان يعمل على تقويض سلطته .

أما نهاية المختار وحركته فكانت على يد مصعب بن الزبير الذى ولى فى سنة ٦٧هـ البصرة لأخيه عبد الله بن الزبير ، بعد أن عزل عنها عاملها السابق من قبله : القُباع ، فقد وجد عبد الله بن الزبير أن استفحال أمر المختار فى الكوفة كان يشكل خطرًا كبيرًا على مركزه فى العراق ، فعهد لذلك بولاية البصرة والكوفة إلى أخيه مصعب ، الذى كان كما وصفه عبد الملك بن مروان : " ذاك الليث النهد " (٣) ، وأمره أن يقضى على المختار ، وأن يعيد الأمور إلى نصابها فى العراق .

لما سمع المختار عن استعدادات مصعب للحرب ضده ، اعتقد أنه قد أرسل من قبل ابن الأشتر ، لأنه خذله وقعد عنه ، فقام خطيبًا فى أتباعه ، وأخبرهم أن ابن الأشتر قد

---

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٠٣ .
(٢) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢٤٣ .
(٣) تاريخ الطبرى : ج ٦ ، ص ١٠ .

خذله وقعد عن نصرته ، وسألهم أن ينضموا إلى جيش أحمر بن شميط ، ومع ذلك فإن المختار كان فى حاجة ماسة إلى مساعدة ابن الأشتر وإلى خبرته العسكرية ، خاصة بعد هـزيمة جيشه فى المذار ، ولذلك كتب لـه عدة مرات يطلب مساعدته ، ولكنه رفض الاستجابة له .

قام مصعب بالمهمة التى عهد بها إليه أخوه خير قيام ، فاستدعى بعد قدومه البصرة المهلب بن أبى صفرة الذى كان يتولى فارس لابن الزبير ، ويقوم بحرب الخوارج فيها ، ووجهـه إلى الكوفـة لقـتال المختار ، ثم لحق مصعب بالمهلب وجعله على ميسرته ، وقـد قـام مصـعب بهذا الإجراء حتى يمنع المختار من استباقه ، فيقدم على مهاجمة البصرة ، لا سيما وأن المختار سرح جيشًا إلى المذار (*) لمهاجمة البصرة ، ولكن مصعبًا ترك البصرة وتوجه إلى المذار ، وعسكر قريبًا من جيش المختار ، وجرت بين الجيشين معـركة قُتل فيها قائد جيش المختار أحمر بن شميط البجلى ، وتابع مصعب سيره بعد ذلـك بـرًا عبر واسط حتى وصل الفرات ، فأركب جيشه السفن وعبروا النهر حتى وصـلوا الكوفة ، أما المختار نفسه فقد كان فى المدائن كعادته ينتظر الأخبار ، وعندما وصـلته أنـباء الهـزيمة (١) تـألم وتمنى ميتة كريمة مثل ميتة أحمر بن شميط ، وبدا أنه سيسـتميت بالقتال ، حيث بدأ يستعد للحصار ويتقوى بالأموال والسلاح فى الوقت الـذى انفتحـت فـيه الطريق إلى الكوفة أمام قوات مصعب بن الزبير ، الذى اتخذ احتـياطات عسكرية ذكية ، تمثلت فى قطع الطريق النهرى أمام أصحاب المختار (٢) ، أمـا أصحاب المختار الذين تحصنوا معه فكانوا ثمانية آلاف فقط وهرب الباقون عندما وصـلت جـيوش مصـعب إلى الكوفة ، وقد أحكم مصعب بن الزبير الحصار على القصر (٣) ، ثم شدد على المؤونة وحال دون وصولها إلى القصر ، وكانت المؤونة والمال تصل المختار وأصحابه عن طريق السبخة ، تحضرها النساء لهم بطرقهن الخاصة، فندب مصـعب بـن الـزبير عبيد الله بن الحر لملاحقة السقائين الذين استغلوا فرصة عطش

(*) وهى بلدة بين واسط والبصرة بينها وبين البصرة نحو من أربعة أيام .

(١) الكامل : ابن الأثير ، ج٤ ، ص ٢٧٠ .

(٢) المصدر السابق : ج٥ ، ص ٢٥٨ .

(٣) المصدر السابق : ج٥ ، ص ٢٦٠ .

أصحاب المختار ، وأخذوا يبيعون شربة الماء بدينار أو دينارين [١] ، وكان المختار قد وضع العسل فى بئر الماء الوحيدة الموجودة فى القصر ليتقوى به أصحابه ، ولكن نقص المؤونة والماء بينهم أدى إلى ضعف مقدرتهم القتالية وبث الذعر فيهم .

وتختلف الروايات فى مدة الحصار ، فيذكر الطبرى أنها أربعة أشهر[٢] ، ويبين الدينورى فى موضع أنها شهران [٣] ، وفى موضع آخر أنها أربعون يومًا [٤] ، ويبدو أن ما يذكره الواقدى غير ممكن ، لأن عدد المحصورين فى القصر كبير ولا تكفيهم المؤونة، ثم إن فى تجربة حصار المختار لابن مطيع فى قصر الإمارة ما يوحى بصعوبة هذه التجربة مع أن عدد المحصورين مع ابن مطيع لم يكن كبيرًا ، وهذا يدعو إلى الأخذ بأقل عدد تورده المصادر لمدة الحصار وهو أربعون يومًا ، وكان المختار يخرج أثناء الحصار مع أصحابه فيقاتلون قتالاً ضعيفًا ، ثم يعودون إلى القصر .

شعر المختار بعدم جدوى الحصار فقرر الخروج مستميتًا ، فدعا أصحابه فخرج معه مائتا رجل فقط ، وقد أبدى المختار شجاعة ومقدرة فى القتال ، إذ قتل رجلاً بصريًا يعد من مقاتليهم الأشداء اسمه : يحيى بن ضمضم الضبى ، وكان أصحابه قد خافوه وتراجعوا عن مواجهته ، إلاّ أن المختار تراجع عندما تكاثر عليه أصحاب مصعب ، وحاول إثارة أصحابه ببلاغة مؤثرة قائلاً : (إنى والله إن قتلت لم تزدادوا إلاّ ضعفًا وذلاً ، ثم إن أخذتم ذبحتم كما تذبح الغنم ، يقولون هذا قاتل أبى ، وهذا قاتل أخى ، وإن قاتلتم صابرين قتلتم فمتم كرامًا)[٥] . ويبدو أن أصحاب المختار تخاذلوا ، وتمسكوا بالاختباء فى القصر ، فتبين له فشل أصحابه وتخليهم عنه .

وبدت النهاية أمام المختار واضحة ، فتحنط وتطيب وخرج مستميتًا فى عدد من أصحابه قليل ، لا أقل من سبعة عشر رجلاً ولا أكثر من تسعة وعشرين [٦] ، واندفع

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٦ ، ص ١٠٥ .
(٢) المصدر السابق : ج٦ ، ص ١١٥ .
(٣) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٩ .
(٤) المصدر السابق : ص ٣٠٧ .
(٥) أنساب الأشراف : البلاذرى ، ج٥ ، ص ٢٦٢ .
(٦) تاريخ الطبرى : ج٦ ، ص ١٠٧ .

يقـــاتل حـــتى ألجأه أصحاب مصعب بن الزبير إلى حائط فى سوق الزياتين وقتلوه مع أصـــحابه جميعًا ، وتختلف الأخبار فيمن قتله ، قيل: قتله أخوان من عترة اسمهما: طرفة وطـــريفة ، وقيل: إن تميمًا تدعى أن قاتله تميمى ، فى حين تدعى ربيعة أنه: طراف بن يزيد الحنفى [١] ، والمتفق عليه أنه قتل فى صبيحة الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٧هـ / ٦٨٦م ، وله من العمر سبعة وستون عامًا [٢] .

وقد أمر مصعب بن الزبير بقطع يد المختار اليمنى ، ثم سمرها على حائط المسجد ، وبعـــث برأسه ورؤوس وجهاء أصحابه إلى أخيه عبد الله بمكة ، فلم تزل مسمورة حتى قدم الحجاج بن يوسف الثقفى إلى الكوفة ، فأمر بها ، فانتزعت ثم دفنت [٣] .

قـــام مصعب باضطهاد أهل الكوفة ، وسمى نفسه الجزار ، وفعل بهم ما كان يفعله عمـــال بنى أمية ، ويبدو أن ذلك حدث تحت ضغط الكوفيين الموتورين من الأشراف فأصدر أمرًا بقتل المحصورين جميعًا صبرًا فى مذبحة جماعية مؤثرة [٤] ، وتختلف الروايات فى عدد المقتولين ، حيث تتفق روايات أبى مخنف وعوانة وعمر بن شبه وابن عياش على أنهم ستة آلاف [٥] ، وفى رواية أخرى لعوانة أنهم خمسة آلاف [٦] ، ويصل العدد عند المســـعودى إلى ســـبعة آلاف [٧] ، ثم تســـعة آلاف عند صاحب تاريخ الخلفاء وهو تصـــحيف للخبر السابق ، أما ابن أبى شبيه فيذكر أنهم ثلاثة آلاف ، وأقل الأعداد التى رويت تجعلهم سبعمائة [٨] .

وأجـــبر حـــريم المختار على التبرؤ منه ، فقبلن إلاّ واحدة قتلها ، هى عمرة بنت الـــنعمان بن بشير ، التى قالت : " إنه كان عبدًا من عباد الله الصالحين " ، وهى أول

---

(١) مروج الذهب : المسعودى ، ج٥ ، ص ٢٢٥ .
(٢) أنساب الأشراف : البلاذرى، ج٥ ، ص ٢٦٤ .
(٣) طبيعة الدعوة العباسية : فاروق عمر ، ص ١٠٩ .
(٤) تاريخ الطبرى : ج٦ ، ص ١١٦ .
(٥) الأخبار الطوال : الدينورى ، ص ٣٠٩ .
(٦) أنساب الأشراف : ج٥ ، ص ٢٧١ .
(٧) مروج الذهب : المسعودى ، ج٥ ، ص ٢٢٧ .
(٨) الإمامة والسياسة / ص ٢٥٧ .

امرأة ضربت عنقها صبرًا فى الإسلام [١] ، فكان لمقتلها أثر مفجع حتى ذكرها الشعراء وتوجعوا لها [*] .

وبذلك عاد العراق إلى سلطان ابن الزبير ، وأخمدت أكبر الحركات الثورية ، التى تطلعت إلى الانتصار لعصبة بنى هاشم ، ولكن بعد مقتل المختار ، أصبح هؤلاء لا حول لهم ولا قوة فى ظل حكم الطاغية ابن الزبير ، فرحل ابن العباس وابن الحنفية من مكة إلى الطائف هربًا منه ، حيث توفى بها ابن العباس فى نفس العام ، أما ابن الحنفية فبقى فيها إلى أن وقعت حادثة قتل ابن الزبير ، حيث قفل بعدها إلى مكة ، وتوفى بالمدينة عام ٨١هـ/٧٠٠م ، كذلك على بن الحسين أقام بالمدينة طيلة مدة الفتنة ، ويبدو أن ابن الزبير كان يعتقد أن عليًا بن الحسين لم يكن على صلة بأعمال المختار ، ولذلك لم يتعرض له، وتوفى فى خلافة الوليد ، حوالى عام ٩٤هـ/٧١٢-٧١٣م[٢].

إن هذه الحركة لم تكن مجرد ثورة على حكم بنى أمية وثورة ابن الزبير معًا ، وإنما كانت بداية خط فى حركة التشيع عرف باسم (الشيعة الكيسانية) ، نسبة إلى كيسان أبى عمرة صاحب شرطة المختار ، أو إلى مولى لعلى بن أبى طالب ، أو لمحمد ابن الحنفية اسمه كيسان ، استطاع أن يحيط بالعلوم ، ويقتبس الأسرار عن هذين السيدين من علم التأويل والباطن ، أو أن كيسان كان لقبًا للمختار نفسه . كما عرفت حركة المختار بأسماء أخرى منها « المختارية » نسبة إليه أو « الخشبية » نسبة إلى العصى الخشبية التى كان الموالى يستعملونها أثناء القتال معه .

---

(١) تاريخ اليعقوبى : ج٣ ، ١٣ .

(*) إن من أعجب العجائب عندى قتل بيضاء حرة عطبول
قتلوها ظلمًا على غير ذنب إن لله درها من قتيل

انظر : البلاذرى : ج٥ ، ص ٢٦٤، والطبرى : ج٦ ، ص ١١٣، والدينورى : ص٣١٠، وابن الأثير: ج٤ ، ص ٢٧٦ .

(٢) طبقات ابن سعد : ج ٥ ، ص ١٦٤ .

تعتبر هذه الثورة بمثابة انقلاب خطير فى حركة المعارضة العلوية ؛ ذلك لأنها نقلت الإمامة من الفاطميين العلويين إلى محمد بن الحنفية ، وهو ابن الإمام على من غير فاطمة رضى الله عنها .

إن التفاف عدد كبير من العرب حول المختار خلال مراحل ثورته ، كان جراء ما نشره بشأن أسباب مجيئه إلى الكوفة ، وهو الأخذ بثأر الحسين ، والانتصار لآل البيت، وهـــذان أمران كان لهما سحرهما فى الكوفة باعتبارها مهدًا للحركة العلوية ، ومستقرًا للإمـــام علىّ نفسه ، ومحط آمال ابنه الحسين الذى روى دمه الطاهر أديم أرضها . هذا فضـــلاً عن العصبية الإقليمية التى كانت سائدة بين العراق والشام من جهة ، والعراق والحجاز من جهة أخرى .

أمـــا وقوف الموالى إلى جانب حركة المختار ، فهو أمر تؤكده كل المصادر التى بين أيدينا ، ويمكن تفسير الأسباب التى دفعت الموالى إلى تأييد المختار ، وللثورات الأخرى الـــتى رفعـــت راية التشيع فيما بعد ، بأن طبقة الأشراف من العرب استأثرت بمعظم الخيرات دونهم رغم إسلامهم ، بالإضافة إلى عدم المساواة ، فى وقت حض فيه الإسلام عـــلى المساواة بين أتباعه دون اعتبار لجنس أو لون ، هذه المساواة التى لم يحصل عليها الموالى ، بل وظلت حلمًا يراودهم حتى انتصرت الثورة العباسية[1] .

إن انتصار مصعب على المختار أدى إلى عودة العراق إلى سلطان ابن الزبير ، وإلى القضاء على حركة من أكبر الحركات التى هبطت لنصرة آل على وبنى هاشم عمومًا، بيد أن ابن الزبير لم يهنأ بهذا النصر طويلاً ، حيث قطف ثمار هذا النصر الخليفة الأموى عـــبد الملـــك بن مروان الذى وجه قواته للقضاء على مصعب بن الزبير ، وتمكن من استعادة العراق إلى الصف الأموى بعد أن زال عنه كابوس المختار .

إن المختار كان شيعيًا مخلصًا ، لكنه أصبح نافد الصبر فى ظل تردد محمد بن الحنفية وضـــعف نشاطه السياسى فيما يتصل بمسألة الأخذ بثأر الحسين بن على « رضى الله عـــنه » ، خاصة وأنه يرى بجلاء أهمية الانتصارات السياسية التى يمكن أن يحققها مثل

---

(١) طبقات الدعوة العباسية : ص ١٠٩- ١١٠ .

هـــذا الثأر لرجل طموح مثله ، لذلك ، فقد سعى إلى تحقيق طموحاته الهادفة للوصول إلى الســـلطة مـــن خلال تسميته لمحمد بن الحنفية بالمهدى ، وإثارته موجة متصلة من الحماس الدينى وبراعته فى صناعة النثر المسجوع ، وظف المختار هذا الحماس الدينى فى تحقـــيق طموحه السياسى ، وفى الانتقام من قتلة الحسين « رضى الله عنه » ، وكذلك فـــإن المخـــتار يـــبدو أنه اهتم بصدق بالوضع الاجتماعى السيئ للموالى وسعى إلى إصـــلاحه، مـــع أن هذا الاهتمام كان يشكل إحدى إرهاصات الثورة ، كون الموالى يمـــثلون فـــئة اجتماعية يمكن المراهنة عليها فى تأييد ثورة كثورة المختار ، كونها تنادى بمبادئ وأفكار تلامس معتقداتها وتتحسس الأوضاع الاجتماعية السيئة التى كان يعانى منها أفرادها .

وعمومـــا، يمكن القول بأن النجاح السياسى المؤقت الذى انتهت إليه ثورة المختار يعتـــبر خطوة حاسمة ومفصلية فى تاريخ تطور الحركة الشيعية ، وفى نهوض الموالى من المستنقع الاجتماعى الذى فرضته ظروف العصر السياسية فى ذلك الوقت .

* * *

مراجع البحث

١ - ابن أعثم الكوفى ، أحمد بن عثمان (ت ٣١٤ / ٩٢٦م) : كتاب الفتوح ، مخطوط (Sary Library of Ahmet III) ، اسطنبول (رقم ٢٩٥٦) .

٢ - ابن الأثير ، عز الدين على بن محمد (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) : الكامل فى التاريخ ، دار صادر للطباعة والنشر ، بيروت سنة ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

٣ - ابن الطقطقى ، محمد بن على بن طباطبا (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م) : كتاب الفخرى ، القاهرة ، سنة ١٨٩٩م .

٤ - ابن العماد، عبد الحى بن محمد الحنبلى (ت ١٠٨٩ / ١٦٨٧م) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، القاهرة ، سنة ١٣٥٠م .

٥ - ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠هـ / ٨٤٥م) : كتاب الطبقات ، ليدن ، سنة ١٩٠٥م .

٦ - ابن كثير ، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣م) : البداية والنهاية فى التاريخ ، مطبعة السعادة ومكتبة المعارف ، بيروت سنة ١٩٦٦م .

٧ - أبو الفداء ، إسماعيل بن على (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م) : المختصر فى أخبار البشر ، المطبعة الحسينية، ط١ ، القاهرة .

٨ - أبو شعر ، هند : حركة المختار بن أبى عبيد الثقفى فى الكوفة ، رسالة قدمت إلى الجامعة الأردنية لنيل درجة الدكتوراه فى التاريخ ، عمان سنة ١٩٨٣م .

٩ - أحمد ، د. محمد حلمى محمد : الخلافة والدولة فى العصر الأموى ، ط١ ، دار الهنا للطباعة ، القاهرة سنة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م .

١٠ - البلاذرى ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م) : أنساب الأشراف ، مخطوط فى Suleymaniye Kutyphanesi تحت رقم (٥٩٨) .

١١ - حمادة ، محمد ماهر : الوثائق السياسية والإدارية العائدة للعصر الأموى (٤٠ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) ، ط٣ ، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

١٢ - خالدى ، أبو النصر محمد : قصة المختار بن أبى عبيدة الثقفى ، أسباب ثورته ونتائجها ، دراسة اجتماعية وسياسية ودينية ، رسالة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٤٩م .

١٣ - الخربوطلى ، على حسين : المختار الثقفى ، القاهرة سنة ١٩٦٣م .

١٤ – داوود ، نبـــيلة عبد المنعم : نشأة الشيعة الإمامية ، رسالة لنيل درجة الماجستير فى التاريخ الإسلامى من جامعة بغداد ، مطبعة الإرشاد ، بغداد سنة ١٩٦٨م .

١٥ – دكســـن ، عـــبد الأمـــير عبد حسين : الخلافة الأموية (٦٥ – ٨٦هـــ / ٦٨٤ – ٧٠٥م دراسة سياسية)، ط١ ، دار النهضة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٣م .

١٦ – الدورى ، عبد العزيز : الجذور التاريخية للشعوبية ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٢م .

١٧ – الدينورى ، أبو حنيفة محمد بن داوود (ت ٢٨٢هـــ / ٨٩٥م) : الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة ، ط١ ، القاهرة سنة ١٩٦٠م .

١٨ – السيوطى ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر (ت ٩١١هـــ / ١٥٠٥م) : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٣٧٨هـــ / ١٩٥٩م .

١٩ – شاكر ، محمود : التاريخ الإسلامى ، ط١، ١٤٠٢هـــ / ١٩٨٢م .

٢٠ – الطـــبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـــ / ٩٢٣م) : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧١م والطبعة الأوروبية أيضًا .

٢١ – عاقل ، نبيه : خلافة بنى أمية ، سلسلة تاريخ العرب والإسلام ، دمشق سنة ١٩٧٢م .

٢٢ – عطوان ، د. حسين : الأمويون والخلافة ، ط١ ، دار الجيل ، سنة ١٩٨٦م .

٢٣ – على ، سيد أمير : مختصر تاريخ العرب ، ط٤ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٨١م.

٢٤ – فروخ ، عمر : تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية ، دار العلم للملايين .

٢٥ – كـــتاب سيرة المختار (منسوب إلى أبى مخنف) : مخطوط برقم (٥٢٧٤) فى Chester Beaty Library .

٢٦ – ماجد ، د. عبد المنعم : التاريخ السياسى للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين ، الجزء الثانى ، ط٣، ١٩٦٦م .

٢٧ – النجار ، محمد الطيب : تاريخ العالم الإسلامى الدولة الأموية فى الشرق ، مكتبة المعارف ، الرياض سنة ١٤٠٦هـــ / ١٩٨٥م .

٢٨ – الواقـــدى ، محمـــد بـــن عمر (ت ٢٠٧هـــ / ٨٢٢م) : كتاب المغازى ، القاهرة سنة ١٩٦٤ – ١٩٦٥م .

٢٩ – الوكـــيل ، د. محمد السيد : الأمويون بين الشرق والغرب ، دراسة وصفية وتحليلية للدولة الأموية ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ١٤١٦هـــ / ١٩٩٥م .

٣٠ – اليعقوبى، أحمد بن على (ت ٢٨٤هـــ / ٨٩٧م) : تاريخ اليعقوبى ، تقديم محمد صادق بحر العلوم، منشورات المطبعة الحيدرية ، النجف سنة ١٣٨٤هـــ / ١٩٦٤م .